

المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي

تحت إشراف: د. محمد عباس
إعداد: بن يحيى بعوش
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية.
والإنسانية جامعة د. مولاي الطاهر سعيدة

المُلخَص:

شهد الدرس اللساني الحديث تحولا مع مطلع السبعينات من القرن الماضي، فقد تجاوزت الدراسات اللسانية تلك المقاربات التي كانت تعد اللغة موضوعا مجردا، وعمدت إلى مقارنة أخرى تصف اللغة في ظل معطياتها الإنجازية أي من الوجهة التي تعتبر الخصائص البنيوية للغات محددة بمختلف الأهداف التي تستعمل اللغات لتحقيقها. وفي مقابل هذه الدراسات الغربية نجد أن هناك دراسات عربية قد سبقت نظيرتها في هذا الغرب، فقد وصلنا تراث ضخم تضافت على خدمته علوم مختلفة من نحو وبلاغة وأصول...، فاللغويون العرب القدماء من أمثال الجرجاني والسكاكي والآمدي، وأثناء معالجتهم لقضايا عديدة تصدوا إلى ظواهر لغوية تماثل تلك التي أريد وصفها في الأنحاء الوظيفية المعاصرة وعلى رأسها ظاهرة الترابط بين الخصائص الصوتية وجوانبها التداولية، ومن بينها قضية اللفظ والمعنى، وقضية ارتباط المقال بالمقام، ومفهوم الكلام، ومن هنا عمد بعض اللسانيين المحدثين العرب إلى إعادة قراءة التراث العربي بغية رصد الترابط القائم بين بنية اللغة ووظيفتها.

توطئة:

يمكن للمشتغل باستمولوجيا الفكر اللساني وبتاريخ هذا الفكر واتجاهاته أن يلاحظ ذلك التحول الذي شهدته الدراسات اللسانية مع مطلع السبعينات من القرن الماضي، فقد ظهرت نظريات لسانية جديدة نظرت إلى اللغة بمنظور جديد، وعملت على تجاوز تلك الدراسات الصورية التي تقف في مقاربتها للغات الطبيعية عند بنيتها ولا تتعدها، وحاولت وصف بنية اللغات الطبيعية بربطها بما تؤديه هذه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشرية. ولقد استطاعت هذه الدراسات الوظيفية أن تحقق سطوة فكرية تجاوزت فيها حدود التنظير والوصف والصرف والتحليل التجريدي إلى العمل الميداني النفعي، ودراسة اللغة في ظل معطياتها الإنجازية، فأحدثت هزة فكرية أدت بالعديد من

النظريات اللغوية إلى إعادة النظر في بناء الجهاز الواصف للغات الطبيعية، فقد تراجعت بعض الأنحاء التوليدية عما ذهبت إليه بخصوص وصف اللغة، إذ أدرجت بالإضافة إلى المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية مستوى يضطلع بالتمثيل للخصائص التداولية باعتبار، هذه الأخيرة تحدد الخصائص الصورية (الصرفية - التركيبية)، وهو أهم منهج تقوم عليه الدراسة الوظيفية.

من أبرز تلك النظريات التي ترى أن للغة وظيفة تؤديها نظرية النحو الوظيفي، التي نشأت في أواخر السبعينات في جامعة أمستردام على يد مجموعة من الباحثين اللسانيين، يرأسهم الباحث الهولندي سيمون ديك.

وتعد هذه النظرية اللغة أداة تسخر لتحقيق التواصل داخل المجتمعات البشرية، وبالتالي فهي تحاول أن تتجاوز في دراستها تلك المقاربات التي تعد اللغة موضوعا مجردا، أي مجموعة من الجمل تربط بين مكوناتها علاقات صرفية - تركيبية ودلالية، وعملت على مقارنة أخرى تعتبر العبارات اللغوية مفردات كانت أم جملا وسائل تستخدم لتأدية أغراض تواصلية معينة تقارب خصائصها البنيوية على هذا الأساس.

ومن هذا المنطلق، تسعى هذه النظرية إلى أن تكون نظرية توصف اللغات الطبيعية في إطارها من وجهة نظر وظيفية، أي من الوجهة التي تعتبر الخصائص البنيوية للغات محددة (جزئيا على الأقل) بمختلف الأهداف التواصلية التي تستعمل اللغات لتحقيقها. كما أعادت النظر في بعض المفاهيم مثل الثنائية المعروفة " قدرة /إنجاز"، فقدره المتكلم "قدرة تواصلية" بمعنى أدق معرفة القواعد التداولية (إضافة إلى القواعد التركيبية والدلالية والصوتية) التي تمكن من الإنجاز في طبقات مقامية قصد تحقيق أهداف تواصلية محددة.

في مقابل هذه الدراسات الغربية المعاصرة نجد أن هناك دراسات عربية قد سبقت نظيرتها في الغرب، فقد وصلنا تراث لغوي ضخم تضافرت على خدمته علوم مختلفة من بلاغة ونحو وأصول وتفسير... إلخ تجاذبته دراسات كثيرة كانت تعود إليها لتنهل منه دوما، فاللغويون العرب (بلاغيين، نحويين، أصوليين) تصدوا إلى ظواهر لغوية تماثل تلك التي أريد وصفها في الأنحاء الوظيفية المعاصرة وعلى رأسها ظاهرة الترابط بين الخصائص الصوتية وجوانبها التداولية.

وبالرغم من مرور الزمن وتوالي المناهج الفكرية والحضارية؛ ظل هذا التراث العربي شامخا قابلا للتجديد وبكل جدارة جنباً إلى جنب وأحدث **النظريات اللغوية** رغم أن هناك من يرفض إخضاع القديم لمعايير تقويم الحديث، بينما أخذ فريق آخر في تقويم القديم على أساس ما يشترط في الحديث فرفض القديم جملة وتفصيلاً، وذلك اعتباراً لقصوره العلمي، لكن في مقابل هذين الفريقين نجد فريقاً آخر يرى أن للدرس اللغوي القديم سماته وخصائصه التي هي ناتج سياقه التاريخي ومحيطه المعرفي فحاول إعادة قراءة هذا التراث العربي قراءة مغايرة على ضوء النظريات اللسانية الحديثة وذلك بهدف وصل الفكر العربي التراثي بالفكر اللغوي المعاصر، ودعا إلى ضرورة استثمار التراث اللغوي العربي القديم، وقراءته في ضوء المناهج الحديثة باعتبار أن المبادئ المنهجية التي ارتكز عليها البحث اللغوي في الفكر القديم تؤاسر من قريب أو من بعيد المبادئ المنهجية التي تحكم الدرس اللغوي الوظيفي المعاصر.

وظيفة اللغة وبنيتها:

لقد تطرقت الدراسات اللسانية بمختلف نظرياتها إلى موضوع وظيفة اللغة، وكتب في هذا المجال الكثير، إلا أن هناك إشكاليين يقفان أمام الباحث في هذا الإطار وهما¹:

أ. هل للغة وظيفة على الإطلاق؟

ب. إذا ثبت أن للغة وظيفة ما، فهل هذه الوظيفة وظيفة واحدة أم هي مجموعة من الوظائف؟

وقبل التطرق إلى ذلك سنحاول رفع الالتباس الذي وقع على مصطلح الوظيفة الذي تردد في مفاهيم كثيرة، ويمكن إرجاع هذه المفاهيم إلى مفهومين: الوظيفة كعلاقة والوظيفة كدور.

1) مفهوم الوظيفة:

إذا وجدنا مصطلح الوظيفة يرد دالاً على علاقة، فالمقصود من وراء ذلك العلاقة القائمة بين مكونين أو مكونات في المركب الاسمي أو الجملة، فمصطلح الوظيفة بهذا المعنى - العلاقة - نجده متداولاً في الأنحاء بما فيها الأنحاء التقليدية، ففي الأنحاء الصورية يستعمل هذا المصطلح للدلالة على العلاقات التركيبية كعلاقة الفاعل والمفعول المباشر والمفعول غير المباشر، أما في الأنحاء ذات المنحى الوظيفي فإننا نجد أن هذا المصطلح يستخدم للدلالة على كل العلاقات الموجودة

¹ ينظر: أحمد المتوكل، التركيبات الوظيفية - قضايا ومقاربات، المغرب، مكتبة دار الأمان، ط1، 2005، ص19.

داخل الجملة أو المركب، فالنحو الوظيفي مثلاً يميز بين ثلاث مستويات من الوظائف:

أ. وظائف دلالية (منفذ، متقبل، مستقبل، زمان، أداة...).

ب. وظائف تركيبية (فاعل، مفعول).

ج. وظائف تداولية (محور، بؤرة...).

وتختلف الأنحاء كذلك بالنظر إلى الوضع الذي تتخذه تلك الوظائف داخل النموذج، فتكون إما وظائف مشتقة أو وظائف أولى.

تكون الوظائف داخل علاقات مشتقة حين يتم تحديدها على أساس موقع المكونات داخل بنية تركيبية معينة، في هذه الحالة يعد فاعلاً المكون الذي تعلوه مباشرة مقولة الجملة، ويعد مفعولاً المكون الذي تعلوه مباشرة المقولة المركب الفعلي، وهذا بالنسبة للغات الشجرية*، كاللغتين الفرنسية والإنجليزية، ويعد بؤرة في الأنحاء الصورية المكون الحامل لشبه الجملة المركزي أو المكون المتصدر للجملة¹.

وفي المقابل تكون الوظائف علاقة أولى (غير مشتقة) إذ هي حددت بدءاً مجردة عن أي بنية صرفية تركيبية أو تطريزية.

ولكي يتضح الأمر أكثر نورد هذين المثالين أو الجملتين (2 ب) و(3 ب) اللتين تتضمنان بؤرة جديد وبؤرة مقابلة على التوالي:

(2) أ- ماذا كتب الطالب.

ب- كتب الطالب رواية

(3) أ- كتب الطالب مقالة

ب- رواية كتب الطالب (لا مقالة).

يمكننا أن نقارب وظيفة البؤرة في الجملتين (2 ب) و(3 ب) مقاربتين مختلفتين، الأولى مقارنة إشتقاقية والثانية مقارنة أولوية. أ. ففي المقاربة الأولى تسند بؤرة الجديد إلى المكون رواية على أساس أخذه النبر المركزي وبؤرة المقابلة إلى نفس المكون على أساس تصدر هذا الأخير للجملة.

ب. في المقاربة الثانية تسند هاتان الوظيفتان إلى المكون المعني بالأمر في الجملتين بدءاً على أساس حمله للمعلومة الجديدة والمعلومة التصحيحية بينما يعد نبره وتصدره سمتين سطحيّتين ناتجتين عن تبئيره لا العكس.

* يقصد باللغات الشجرية اللغات التي يشكل فيها الفعل مع المفعول مركباً واحداً، يحكم فيه الأول الثاني ويسند إعرابه.

¹ ينظر: المرجع السابق، ص 22.

أما مفهوم الدور كمصطلح للوظيفة فالمقصود به الغرض الذي تسخر الكائنات البشرية اللغات الطبيعية من أجل تحقيقه، ولعلنا نقف عند هذا الحد من حديثنا عن مفهوم الوظيفة كدور لأننا سنتطرق إليه بأكثر تفصيل في مبحث لاحق.

لكن الشيء الذي لا بد أن نشير إليه وهو أن مفهومي العلاقة والدور بالنسبة للوظيفة مفهومان متباينان كما أوضحنا، حيث نجد أن العلاقة رابط بنيوي قائم بين مكونات الجملة أو مكونات المركب بينما الدور يخص اللغة بوصفها نسقا كاملا، إلا أن هذا التباين بين المفهومين لا يلغي ذلك الترابط الموجود بينهما وهذا الأخير له وجهان وهما:

أ. في الإنحاء التي تعتمد مبدأ وظيفة اللغة، أي أن اللغة دورا معينا تسخر لأجله كدور تحقيق التواصل، يضاف في هذا الإطار إلى الوظائف التركيبية والدلالية وظائف أخرى تسمى الوظائف التداولية كوظيفتي المحور والبؤرة، لكن هذه الوظائف الأخيرة قد تقتلص أو تنعدم في الغالب في الأنحاء التي لا تولي اهتماما كبيرا للجانب الوظيفي للغة.

ب. يغلب أن تتخذ الوظائف وضع وظائف أولى (غير مشتقة) في أنحاء تسند للغة دورا معينا (دور تحقيق التواصل خاصة) أكثر مما يتخذ هذا الوضع في أنحاء أخرى ليست لها هذه السمة. إلا أن هذا الأمر لا يمكن أخذه كقاعدة كلية، إذ يمكن أن ترد الوظائف علاقات أولى في نحو ما دون أن يكون هذا النحو نحوا وظيفيا، أي يؤمن بأن للغة دورا وأن هذا الدور يحتم علينا أن نأخذ بعين الاعتبار في وصف الظواهر اللغوية وتفسيرها¹.

أي أنه هناك من النحو ما يختلف عن هذه النظرية من حيث المبادئ والمناهج، إلا أنه يتخذ الوظائف وضع وظائف أولى (غير مشتقة) كما هو الحال بالنسبة للنحو المعجمي الوظيفي.

(2) أدوات اللغة:

لم ينظر إلى اللغة في الدرس الوظيفي مثلما كان ينظر إليها من قبل، ففي المقاربة الصورية تعد اللغة موضوعا مجردا أي مجموعة من الجمل تربط بين مكوناتها علاقات صرفية - تركيبية ودلالية، وبالتالي كانت تقارب على أساس أنها بنية مجردة يمكن دراستها

¹ ينظر: المرجع السابق، ص 24.

(دراسة خصائصها) في حد ذاتها أي بمعزل عما يمكن أن تستعمل من أجله، أما في المقاربة الوظيفية فاللغة تعد أداة تسخر لتحقيق التواصل داخل المجتمعات البشرية¹.

أي أن العبارات اللغوية تستخدم لتأدية غرض تواصلية معين وبالتالي تقارب تلك الخصائص (الصرفية - التركيبية والدلالية) على هذا الأساس وتصبح البنية تابعة للوظيفة (الغرض المقصود)، ولنبين أكثر مفهوم أدوات اللغة بالمثلين التاليين:

(1) أ- قابلت خالدًا

ب - خالدًا قابلت

ففي الجملة (1أ) والجملة (1ب) في المقاربة الصورية جملتان متشابهتان وليس هناك فرق ماعدا تموقع المكون المفعول الذي أخذ موقعه الأصلي في الجملة (1أ) بعد الفعل وفي الجملة (1ب) جاء في صدارة الجملة أي تغير موقعه، فالفرق فرق بنيوي صرف.

أما في المقاربة التي تعتمد مبدأ أدوات اللغة فتفرق بين الجملتين وتعتبر أن هناك فرقا في القصد ما دام أن هناك فرقا بنيويا، ففي الجملة (1أ) حافظ المكون المفعول على موقعه داخل الجملة (بعد الفعل) والمقصود من وراء إنتاج المتكلم لهذه الجملة هو إخبار المخاطب بمعلومة جديدة لم تكن تتوفر في ذهن هذا الأخير أو يعتقد المتكلم أن هذه المعلومة غير متوفرة لدى المخاطب، أما الجملة (1ب) فالمكون المفعول تغير موقعه وأصبح يتصدر الجملة، والقصد من وراء إنتاج الجملة (1ب) هو تصحيح معلومة كانت موجودة في ذهن المخاطب أو ردا على جملة ما ولتكن الجملة (2)

(2) علمت أنك قابلت عليا.

(3) دور اللغة: وظيفة أم وظائف؟

لا يمكن لأحد أن ينفي وجود وظيفة تؤديها اللغة لأنه ليس هناك شيء موجود ليست له وظيفة يؤديها، لكن هل هذه الوظيفة التي تؤديها اللغة وظيفة واحدة أم وظائف متعددة؟.

لقد دافع تشومسكي (1975) في نقاشه مع فلاسفة اللغة عن أطروحة أن وظيفة اللغة ليس بالضرورة أن تكون وظيفة التواصل،

¹ ينظر: أحمد المتوكل، المنحنى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، المغرب، مكتبة دار الأمان، ط1، 2006، ص20.

فقد تكون مجرد تعبير عن الفكر ويحتج لذلك في كوننا قد نكتب نصا ما دون أن ننشره أو نخاطب به أحدا.

إلا أن جمهور المتحدثين عن وظيفة اللغة فلاسفة ولسانيين وغيرهم مجمع على أن دور اللغة هو بالأساس تمكين مستعمليها من التواصل فيما بينهم. لكن هناك إشكال آخر وهو إذ نحن سلمنا بأن اللغة وظيفة وهي وظيفة التواصل فهل هي الوظيفة الوحيدة للغة أم هناك وظائف أخرى تؤديها هذه اللغة ؟

في هذا الإطار نعرض آراء مجموعة من اللسانيين.

1. يرى فريق من اللسانيين أن للغة وظائف متعددة لا وظيفة واحدة، حيث يرجع هاليداي (1970) مختلف وظائف اللغة إلى ثلاث وظائف مترابطة: الوظيفة التمثيلية (التعبير عن تجربة المتكلم بالنظر إلى الوقائع أو بالأحرى إلى عالم من العوالم الممكنة)، والوظيفة العلاقية (التعبير عن الدور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلم بالنسبة للمخاطب كدور المخبر، أو السائل من جهة والتعبير عن موقفه من فحوى خطابه كأن يكون متيقنا، أو محتملا، أو شاكا من جهة ثانية)، والوظيفة النصية التي تكمن في إنتاج خطاب متسق مطابق لمقام إنتاجه، ويذهب رومان جاكبسون إلى أن للغة ست وظائف وهي المرجعية والتعبيرية والتأثيرية والشعرية والمتالغوية والوظيفة التي يمكن تسميتها على وجه التقريب الوظيفة اللغوية¹.

2. من اللسانيين من يرى أن للغة وظائف متعددة مثل سيمون ديك، لكن هذا الأخير له نظرة أخرى مخالفة لنظرة الفريق الأول حيث أدخل نوعا من الترتيبية بين مختلف الوظائف، حيث ميز بين وظيفة التواصل وجعلها هي الأصل أما باقي الوظائف الأخرى التي يمكن أن تسخر اللغة لتأديتها فيعدها فروعاً مشتقة ذلك من الأصل².

ويرى أحمد المتوكل (1989) رأيا مشابها لرأي سيمون ديك على أن للغة وظيفة واحدة هي وظيفة التواصل بينما الوظائف الأخرى كوظائف هاليداي وجاكبسون يمكن عدها أنماطا من أنماط التواصل المتعددة

التراث اللغوي والوظيفة:

كما أشرنا في بداية هذا البحث أنّ الدراسات العربية القديمة تركت لنا تراثا لغويا ضخما تضافرت على خدمته علوم مختلفة من

¹ ينظر: أحمد المتوكل، التركيبات الوظيفية-قضايا ومقاربات، ص25.

² ينظر: المرجع السابق، ص.

بلاغة ونحو وأصول وتفسير...، ومن هنا "عمد بعض اللسانيين العرب وخاصة بالمغرب (المتوكل، الزهري، البوشيخي...) إلى تبني مشروع ذي شقين متلازمين تلازم تزامن وتكامل"، محاولين إعادة النظر في المنهجية وتحديثها وتعديل بعض أسسها بما يكفل توفية الفكر اللغوي العربي القديم حقه بعيدا عن المجاباة أو الإجحاف¹.

قراءة التراث : بعض الاقتراحات المنهجية:

ينطلق الباحث المغربي أحمد المتوكل في منهجيته-التي اقترحها- من منطلق أن المفاهيم المتعددة الواردة في علوم اللغة العربية تنزع كلها إلى التوحد وإن تعددت تلك العلوم فالباحث يرى أن ثمة جوامع توحد بينها نذكر منها الأهم 2:

1. تستهدف هذه العلوم على اختلافها فهم النص القرآني ودراسته واستخراج الأحكام منه.

2. تنزع المفاهيم الأساسية إلى الانتقال من علم إلى آخر مثل "التخصيص" و"التوكيد" وغيرها التي نجدها دارجة في كتب النحو والبلاغة والتفسير وغيرها.

3. قد تختلف المصطلحات من علم إلى علم لكن المفهوم واحد. إن تضافر هذه الجوامع يحتم على قارئ التراث أن يتناول علوم اللغة لا على أساس أنها مستقلة بل على أساس أنها مكونات لمقاربة واحدة للخطاب تستمد مفاهيمها ومنهجها من جهاز نظري واحد. والجدير بالإشارة أن هذه المقاربة الشمولية واردة عند اللغويين العرب القدماء حيث تشكل قوام نظرية النظم "عند الجرجاني"³، و"نظرية الأدب" عند السكاكي.

من هذا المنطلق عمد اللسانيون الوظيفيون المعاصرون العرب إلى قراءة التراث محاولين في الوقت نفسه نقادي الإسقاط المباشر للنظريات الحديثة على التراث العربي وإن كان الإسقاط إسقاطين: إسقاط وجود، وإسقاط تقويم⁴:

1. يمكن أن ننسب إلى نظرية ما مفاهيم موجودة في نظرية أخرى، مثل أن نقول أن البنية الصرفية التركيبية في النظريات الحديثة

¹ ينظر: أحمد المتوكل، المنحنى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، ص 165.

² ينظر: المرجع نفسه، ص 166.

³ عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصر، مكتبة الخانجي، ط 2000، ص 339.

⁴ ينظر: أحمد المتوكل، المنحنى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، ص 169.

هي ما كان يسميه الجرجاني "نظرية النظم"، وأن مفهوم مبدأ البؤرة يطابق مفهوم "العناية أو الاهتمام" عند اللغويين العرب القدماء.
2. أمّا إسقاط التقويم، فإن نقوم بتقويم أو انتقاد نظرية ما سلباً أو إيجاباً انطلاقاً من نظرية أخرى وهذا مرفوض لأن لكل نظرية منطلقاتها العلمية ومرجعياتها الفلسفية الخاصة بها.
لكن يبقى أمامنا إشكال مطروح وهو: كيف يمكن قراءة النظريات اللغوية أو المقارنة بينها بعيداً عن الإسقاط؟.
في هذا الإطار يقترح أحمد المتوكل سبيلين لتلافي الإسقاط وهما¹:

أ. تحاشي الانطلاق من نظرية بعينها حديثة كانت أم قديمة.
ب. وضع ميتانظرية تعلو جميع النظريات، وتشكل المرجع والحكم الوحيدين في القراءة والمقارنة معا ولتكن هذه النظرية هي النظرية الوظيفية المثلى التي شغلت لتقويم النظريات الوظيفية الحديثة وتمكّن من قراءة الجانب الدلالي من التراث اللغوي العربي.

(2) الدلالة والتراث اللغوي العربي:

إذا نظرنا إلى مصطلح الدلالة فنجد قد أطلق على المعنى بنمطيه "المعنى القصد" و"المعنى الفحوي" أي نيّة المخاطب في خطابه وفحوى الخطاب ذاته.

هذان النمطان من المعنى قد تناولته دراسات عدة في مختلف علوم اللغة العربية وتحت مصطلحات مختلفة إلّا أنّ التنظير لهما يكاد يكون واحداً. من هذا المنطلق بدأ التنظير لذلك وفق مراحل ثلاث²:

1. رصد المفاهيم الأساسية قوام التنظير.
 2. بلورة الجهاز الواسف وصياغته
 3. عرض أمثلة للظواهر الدلالية المقاربة .
- يلاحظ القارئ للتراث العربي أنّ هناك مفاهيم أساسية يمكن الانطلاق منها في هذه الدراسة ومنها المقولة المعروفة " لكل مقام مقال " فهذه المقولة تختزل الفلسفة التراثية في التنظير للدلالة.
- المقام: هو مجموعة العناصر التي تتوفر في موقف تخاطبي معين، وأهمّها زمان التخاطب، ومكانه، وعلاقة المتكلّم بالمخاطب،

¹ ينظر: المرجع نفسه، ص 170،

² ينظر: المرجع السابق، ص 171 .

والوضع التخابري القائم بينهما، أي مجموعة المعارف التي تشكل مخزون كل منهما أثناء العملية التخاطبية.

لقد انتبه البلاغيون العرب قديماً إلى أهمية العناصر المقامية بالنظر إلى المقال وتحديد خصائصه، ومثال ذلك ما أشار إليه السكاكي في كتابه مفتاح العلوم، حينما ميّز بين أضرب الخبر، أي بين الخبر الابتدائي والخبر الطلبي، والخبر الإنكاري على اختلاف المقام والوضع التخابري على الخصوص، حيث يُلقى الأوّل لخالي الذهن، والثاني للمتردد، والثالث للمنكر.

المقال: هو الخطاب المنطوق أو المكتوب الذي ينتجه المتكلم في زمان ومكان معينين تجاه مخاطب معين بالنظر إلى وضع تخابري معين.

و القارئ للتراث العربي يجد أن اللغويين العرب القدماء قد اعتبروا اللغة وسيلة للتواصل حيث عرفها ابن جني على هذا الأساس: " حد اللغة أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"¹.

فاللغة كما يتصورها ابن جني، وسبويه وآخرون ممن ظهوروا في الصدر الأول، هي استعمال الناطقين بها أي إحداث لفظ معين لتأدية معنى وغرض في حال الخطاب الذي يقتضى هذا المعنى وهذا اللفظ، فهي ليست مجرد صوت ولا نظام من القواعد ولا أحوال خطابية معزولة عن كل الأشياء، بل هي أداء يتوسط بها البشر للتعبير عما يعنى من الأغراض، ومن هنا يجد القارئ للتراث العربي أن اللغويين العرب قد انطلقوا في دراساتهم من هذا التصور-اللغة- وقاموا بمعالجة مفاهيم وقضايا عديدة مثل قضية اللفظ، والمعنى، وقصد المتكلم (المعنى القصد).

اللفظ والمعنى :

1. اللفظ: لا يقصد بمصطلح " اللفظ" في التراث اللغوي الصورة الصوتية النهائية فحسب بل يشمل كذلك العلاقات النحوية (الصرفية - التركيبية) التي تنوي خلفها وهذا ما أشار إليه الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، فاللفظ - عند الجرجاني- في مقابل المعنى هو ناتج " إعمال أحكام النحو".

¹ ابن جني، الخصائص، تح: عبد الحكيم بن محمد، مصر، المكتبة التوفيقية، 1418هـ، ج1، ص132.

ما نستنتجه أنَّ اللَّفْظ في التراث العربي هو البنية الصرفية -
التركيبية للعبارة اللُّغوية المتحققة في سلسلة صوتية. ونمثل لذلك
بالجملة التالية: هل / يستوي / العالم / و/ الجاهل.
أداة / فعل / اسم فاعل/ أداة/ اسم فاعل.

2. المعنى: لمفهوم المعنى في التراث العربي حقل شاسع غير
أنَّه يمكن حصره في ثنائية المعنى القصد والمعنى الفحوي.
المعنى القصد: يفيد معنى العبارة اللُّغوية ذاتها وهو في الأغلب
مجموع معاني مكوناتها مضمومًا بعضها إلى بعض خطيًا
المعنى الفحوي: يستوجب في استعمال العبارات اللُّغوية التمييز
بين "معنى العبارة" وهو ما أشرنا إليه من قبل ومعنى المتكلم" أي بين
الفحوى المعجمي - التركيبي لتلك العبارات والقصد الذي يريد المتكلم
أن يحققه من خلال إنتاجه لتلك العبارات .

لقد عني البلاغيون والأصوليون من أمثال الجرجاني والسكاكي
والأمدى بقضايا عديدة مثل مفهوم الكلام وما يرتبط به من
مفاهيم مثل الفائدة التي يؤديها الكلام، وبهذا الخصوص نجد أنَّ
السكاكي في كتابه مفتاح العلوم يميز بين الخطاب الحامل لفائدة أي
لمعلومة غير متوفرة عند المخاطب، والخطاب غير الحامل لفائدة
ويسمى الصنف الثاني من الخطاب لغوًا. وفي السياق نفسه يميز ابن
جني في كتابه "الخصائص" بين القول والكلام على أساس أنَّ الأول
لفظ غير مفيد، والثاني لفظ ذو فائدة. ولا يسعنا في هذا البحث التطرق
إلى كل تلك القضايا والمفاهيم لكن ما يمكن قوله وهو أنَّ اللغويين
العرب القدماء لم يدرسوا العبارات اللُّغوية مستقلة عن محيطها
الخارجي وإنما رعوا الظروف التي أنتجت فيها تلك العبارات اللُّغوية.

التميط اللُّغوي:

من المعلوم أنَّ من الأهداف الكبرى التي تسعى نظرية النحو
الوظيفي في تحقيقها الكفايات الثلاث ومن بينها الكفاية النمطية. ففي
هذا الإطار رصدت مجموعة من الكليات اللُّغوية في شكل سلميات
استلزامية اعتمدت أساسًا لتميط مختلف اللُّغات الطبيعية (ديك
1997)¹.

¹ ينظر: أحمد المتوكل، التركيبات الوظيفية-قضايا ومقاربات، ص183.

يقترح الباحث أحمد المتوكل في هذا الشأن (المتوكل 2003) إطاراً نظرياً عاماً يكفل تمييز اللغات مع رصد تطورها، وقد توصل هذا الباحث إلى تضيق اللغات إلى لغات موجهة "تداولياً" تغلب المستوى العلاقي ولغات موجهة "دلالية" تغلب المستوى التمثيلي¹. يركز الباحث في هذا المجال على المستوى البنيوي واستكشاف مدى دوره في تحديد أنماط اللغات، وتحديد تطورها، وذلك انطلاقاً مما يؤلف ومما يخالف بين بنائها الصرفية - التركيبية، معتمداً في ذلك على ما توصل إليه من نتائج في دراساته، وقد اتخذ متناً أساسياً لتمثيل المجال العربي فصحاء ودوارجة، لكن الهدف الذي يسعى إليه هو الوصول إلى تعميمات دالة عن تضيق اللغات بوجه عام وعمما يحكم تطورها.

كما يرى المتوكل أن من المبادئ العامة المعتمدة في نظرية النحو الوظيفي (وفي نظريات لسانية أخرى) أن ما تنقسمه اللغات يكمن في البنية التحتية للعبارة اللغوية خاصة إذا كانت هذه البنية ذات طبيعة تداولية-دلالية².

ويرى أيضاً أنه إذا كانت البنية التحتية بمستوياتها العلاقي والتمثيلي محط ائتلاف بين اللغات فمن الصعب اعتماد هذه البنية في رصد ما يمايز بين اللغات من اختلاف، غير أنه تسنى له في مكان آخر (المتوكل 2003) أن يرصد بعض الاختلاف بين اللغات في مستوى البنية التحتية نفسها، واستطاع أن يقيم على أساس هذا الاختلاف التداولي - الدلالي تصنيفاً أولياً يرجع اللغات إلى نمطين اثنين³.

نذكر هنا الاقتراح الذي قدمه المتوكل والذي نجمله فيما يلي:
أ. للبنية التحتية في جميع اللغات مستويان: مستوى علاقي ومستوى تمثيلي، ومهما كان الاختلاف في تحقيق هذين المستويين إلّا أنّ هناك فئات تغلب المستوى العلاقي وأخرى تغلب المستوى التمثيلي، أي أنّ الأولى تغلب التداول على الدلالة والثانية تغلب الدلالة على التداول.

¹ ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفة بين الكلية والنمطية المغرب، دار الأمان، 2003، ط 1، ص 183-184.

² ينظر: المرجع نفسه، ص 185.

³ ينظر: المرجع السابق، ن ص.

ب. على أساس هذا التغليب تم إرجاع اللغات -على اختلافها - إلى نمطين: نمط اللغات "الموجه تداوليا" ونمط اللغات "الموجه دلاليًا" بحيث يغلب النمط الأول المستوى العلاقي، فيما يغلب النمط الثاني المستوى التمثيلي، وجعل من هذين النمطين "قطبين" متواليين تصنف داخلها اللغات حسب اقترابها من أحد القطبين أو ابتعادها عنه¹.

على هذا الأساس أدرج المتوكل اللغة العربية الفصحى إلى جانب لغات أخرى مثل اللغة الألمانية في خانة اللغات الموجهة تداوليا فيما اعتبر اللغتين الإنجليزية والفرنسية مثالين للغات الموجهة دلاليًا. وقد تمكن المتوكل من توضيح مفهوم التغليب لا في تنميط اللغات فحسب، بل كذلك في رصد ما يمكن أن يطرأ عليها من تطور، وقد تمكن من الاستدلال على أن صيرورة اللغات تتطوّر بوجه عام من قطب التوجه التداولي إلى قطب التوجه الدلالي، وقد مثل لذلك بالدوارج العربية التي لاحظ أنها تنزع إلى الانتقال من فئة اللغات الموجهة تداوليا إلى فئة اللغات الموجهة دلاليًا².

اللغات الشفافة / اللغات الكاتمة:

تعتبر ثنائية الشفافية والكاتمة خاصية من خصائص البنية الصرفية - التركيبية في اللغات الطبيعية وتختلف تحققاتها من لغة إلى لغة.

بناء على ذلك يمكن أن نتخذ هذه الثنائية معيارا لتنميط اللغات ويمكن أن نصاغ في الشكل التالي:

اللغات الشفافة ... اللغات الكاتمة. تقرأ المتوالية على أن اللغات نمطين أساسيين اثنين: لغات شفافة التركيب، ولغات كاتمة التركيب، وأن اللغات الأخرى تتدرج بين هذه النمطين حسب دنوها أو ابتعادها من أحدهما. ويقصد بالتركيب "الشفاف" (في مقابل التركيب "الكاتم") التركيب الذي يفصل فصلا تاما أو جزئيا في مستوى البنية الصرفية- التركيبية بين العناصر الوافدة من البنية العلاقية (التداولية) والعناصر الوافدة من البنية التمثيلية (الدالية). وترتبط شفافية التركيب بالإعراب، فاللغات شفافة التركيب غالبا ما تكون معربة كاللغة العربية.

"يرى المتوكل أنه إذا انطلقنا من ثبوت التلازم بين التغليب والشفافية أمكننا أن نوازي بين التنميط التداولي الدلالي الذي يقسم

¹ ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفة بين الكلية والنمطية، ص 161.

² ينظر: أحمد المتوكل، التركيبات الوظيفية-قضايا ومقاربات، ص 191.

اللُّغات إلى لغات موجهة تداوليا (علاقيا) ولغات موجهة دلاليا (تمثيلية) والتتميط الصرفي - التركيبي الذي يصنّفها إلى لغات شفافة ولغات كاتمة ويمكن أن نمثل لهذا بالشكل التالي:¹

لغات النمط أ لغات النمط ب.
موجهة تداوليا موجهة دلاليا.
شفافة التركيب كاتمة التركيب .

قد تنزع بعض اللُّغات إلى الانتقال من النمط الشفاف التركيب إلى النمط الكاتم التركيب، ثم تعود إلى الانتقال من النمط الثاني إلى النمط الأول، فقد يطرأ على اللُّغات الشفافة مع مرور الزمن-تغيرات تؤدي إلى تقلص هذه الشفافية تقلصا تدريجيا ينتهي بفقدانها، ويعود ذلك الانتقال لأسباب منها ما هو خارجي، ومنها ما هو داخلي، ويمكن أن نرجعها إلى²:

1. أهمُّ العوامل الخارجية: "احتكاك اللُّغات كأن تقترض لغة شفافة التركيب خاصية من خصائص لغة كاتمة التركيب". من أبرز الأمثلة على ذلك في المجال العربي انتقال اللُّغة العربية المعاصرة تحت تأثير اللُّغتين الفرنسية والإنجليزية من البنية الرتبية فعل -فاعل -مفعول إلى البنية الرتبية فاعل -فعل مفعول، ويظهر ذلك جليا في الدوارج (العربية).

2. أما الأسباب الداخلية فيقصد بها التغيّرات التي تطرأ على البنية الصرفية-التركيبية والتي تكون نابعة من نسق اللُّغة نفسه، ومن أهمُّ العوامل الداخلية ما يسمى "بالافتقار الصرفي" وهي ظاهرة من الظواهر التي تحيل اللُّغة "الغنية صرفا" إلى لغة "فقيرة صرفا". كما يفضي تطور اللُّغات إلى الانتقال من النمط الشفاف إلى النمط الكاتم ويتم ذلك في غالب الأحيان بسبب فقدان الإعراب وهو ما نجده في الانتقال من اللُّغة العربية الفصحى إلى دوارجها³. نخلص إلى أنّ البنية الصرفية - التركيبية في اللُّغات ترتبط بوظيفة التواصل وتحكمها علاقة تبعية يتحكم بمقتضاها التداول

¹ ينظر: أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي، ص 194.

² ينظر: أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية-دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، المغرب، دار الأمان، ط 1، 2010، ص 171.

³ ينظر: المرجع نفسه، ن ص.

والدلالة في الصرف والتركيب منفصلين أو مضمومين إلّا ما شد عن ذلك.

خاتمة:

من خلال هذا البحث يمكننا أن نخرج ببعض النتائج المهمة على شكل نقاط:

1. الدراسات التي قام بها اللغويون العرب القدماء أثناء معالجتهم لمجموعة القضايا والمفاهيم الواردة في علوم اللغة العربية قد مست من قريب أو بعيد الدراسات الوظيفية الحديثة.
2. الوظيفة الأساسية للغة-في نظرية النحو الوظيفي- هي وظيفة التواصل أو ما يسمى بالتواصل التفاعلي، وهو ما أشارت إليه الدراسات اللغوية القديمة.
3. لا يمكن دراسة العبارات اللغوية بمعزل عن إطارها الزمكاني (أي انطلاقاً من الوضع التخاطبي بين المتكلم والمخاطب في طبقة مقامية معينة).
4. الملاحظ على الدراسات اللغوية العربية القديمة أنها كانت تولي اهتماماً للوظيفة.
5. التأكيد على أن هناك نظرية تداولية ثاوية خلف مختلف العلوم اللغوية (النحو، البلاغة، فقه اللغة...) وأنها قابلة للتجاوز بمعنى القرض والاقتراض مع النظريات التداولية الحديثة بما فيها نظرية النحو الوظيفي.
6. يمكن التمييز بين اللغات الموجهة دلاليا التي تغلب المستوى التمثيلي، واللغات الموجهة تداوليا والتي تغلب المستوى العلاقي، وتدرج اللغة العربية الفصحى في خانة اللغات الموجهة تداوليا.
7. تفنيد وجود قطيعة بين الدراسات اللسانية الحديثة والفكر اللغوي القديم، فاللسانيات الحديثة ما هي إلا حقبة من حقبة تطور فكر لغوي واحد منذ بدأ الإنسان يفكر في اللغة.
8. رغم هذه المشابهة يظل الاختلاف بين النموذجين بسبب الاختلاف في الأصول العامة والمنطلقات المبدئية التي توجه وصف الظاهرة اللغوية وتعقيدها، مما يدفعنا إلى القول بأن دراسة النحو العربي بمناهج حديثة ممكنة وأن الإفادة من هذه المناهج مشروعة على أن تنطلق هذه الدراسة - في رأينا - من خلال المشترك بين الأنظار

والاتجاهات في دراسة اللغات المختلفة حتى لا ندخل على النحو العربي ما ليس منه.

المصادر والمراجع

1. أحمد المتوكل، التركيبات الوظيفية-قضايا ومقاربات، المغرب، مكتبة دار الأمان، ط1، 2005.
2. أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية-دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، المغرب، دار الأمان، ط1، 2010.
3. دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، الدار البيضاء، المغرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، 1986.
4. أحمد المتوكل، المنحنى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، المغرب، مكتبة دار الأمان، ط1، 2006.
5. أحمد المتوكل، مسائل النحو العربي في قضايا النحو الوظيفي، المغرب، دار الكتاب الجديد، 2008.
6. أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، الرباط، المغرب، دار الأمان، د ط، 2003.
7. عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصر، مكتبة الخانجي، د ط، 2000.
8. ابن الجني، الخصائص، تح: عبد الحكيم بن محمد، مصر، المكتبة التوقيفية، د ط، 1418هـ، ج1.